

فلسطين المنطقية : هل هي مفاجأة للأمريكيين أم استدراج محسوب منهم ؟

ناهض منير الرئيس

النائب عن مدينة غزة

قال رجل الشارع الفلسطيني أمام ميكروفون إذاعة لندن في مدينة رام الله ، بعد برهة يسيرة من العملية الفدائية الاستشهادية في القدس صباح يوم الخميس الماضي ، مبديا رأيه في العملية : ((إنها ترفع الرأس)) ! وقالت إحدى المرات عرضا : ((هذا شيء طبيعي ردا على تنكيل جيش الاحتلال بنا)) ! وقال رجل ثالث : ((ولكنها عملية سوف تستتبع ردودا إسرائيلية ضد المدنيين لدينا ، وهكذا تستمر الحلقة بلا نهاية ، وهذا ليس في صالح أحد ، وعلى العقلاء عندنا وعندهم أن يجدوا طريقة لوقف النزيف)) !

يوما بعد يوم تتلاشى آمال الوصول إلى تسوية وسلام في فلسطين . وتتلاشى آمال العثور على ما يسمونه " العقلاء " . ويرافق هذا التلاشي ازدياد مضطرب في نسبة الذين يرون العمليات الاستشهادية بمثابة العزاء الوحيد ، ما دامت الموجة الحالية من العسف والتجبر والتقتيل والتنكيل والتخريب مستمرة على كل حال . ويمكن التأكيد أيضا أن هذه الموجة هي السبب الأكبر في تعبئة أولئك الشباب بالعزم على السير في طريق الشهادة دون تردد ولا توقف حتى النهاية . فقد تراكمت تفاعلات موجة العسف والتقتيل وتعاضمت مع مرور الوقت ، منذ بدأتها قوات الاحتلال بأوامر جنرال الاغتيالات إيهود باراك ، وواصلها جنرال المذابح آرينيل شارون ، على نحو لم يعرف له البشر مثيلا في وحشيته وضراوته واستهتاره بالأرواح الإنسانية وتكره لقواعد الحكم ولقواعد الحرب معا ، ونقول : لقواعد الحكم لأن الاحتلال يعد نفسه صاحب الولاية والحاكم الأوجد للفلسطينيين ، ثم يشن حربا على هؤلاء (الرعايا) بواسطة قواته المسلحة بأجمعها وبإمكاناتها كافة ويسوسهم بالبطش والإرهاب محتجا بأنهم متمردون ومخربون وإرهابيون ، ويأبى الاعتراف لهم بالسيادة على أراضيهم ، سواء المحتلة قديما أو حديثا ... ونقول أيضا إن موجة الإرهاب الصهيوني العاتية تنكرت لقواعد الحرب لأن قواعد الحرب لا تسمح للمحتل أن يوقع بالمدنيين هذا التقتيل اليومي ولا هذا الغت وهذه العقوبات الجماعية التي يعانها الفلسطينيون في أرزاقهم وتنقلاتهم ، وإجمالا في كل شأن من شؤون حياتهم التي أحالها الاحتلال لعبة بيد صبيته الجنود منفلي العيار ، تحت تأثير الأحقاد والهواجس المذعورة . فالمجرمون الكبار من القادة في مكاتبهم وغرف عملياتهم يرسمون على الورق مخططات لا سابق لسفالتها ونذالتها ، لأنها في حقيقة الأمر ليست مجرد عقوبات وإنما درجة متقدمة مما يطلق عليه (التطهير العرقي) . وهل هناك دليل على ذلك أسطع وأشنع من الحقيقة التي تناقلتها وكالات الأنباء ووسائل الإعلام مؤخرا ، إذ بلغ معدل عدد الشهداء الفلسطينيين في الشهر الأخير - شهر تشرين الثاني نوفمبر - ثلاثة شهداء كل يومين؟؟ ناهيك عن أن كلمة التطهير العرقي بنصها وحرفها وردت كدعوة وأمنية في الكتاب الذي يعد مرجعا فكريا وتلمودا جديدا لليمين الإسرائيلي من تأليف وزير خارجية إسرائيل الحالي رئيس الوزراء الأسبق بنيامين نتنياهو وأعطاه عنوانا مضللا : مكان تحت الشمس - إسرائيل والعالم ! كما أن كلمة التطهير العرقي وردت بمعناها وروحها في تصريحات رئيس الأركان الاحتلالي الحالي موشيه يعلون ، الذي تخيل الفلسطينيين سرطانا وجعل استئصالهم علاجا لأوجاع إسرائيل ، وهو عين ما فعله آرينيل شارون مرارا ، في قبية ، وغزة ، وصبرا وشاتيلا ، وثابر على عمله يوميا بواسطة شاؤول موفاز في مدن وقرى الضفة والقطاع يوميا .

فرع من أصل

المراد إذن هو التخلص من الفلسطينيين . وتلك عقيدة مقدسة عند الحاخامات ذوي الأحزاب السياسية ، أما عند اليمينيين العلمانيين فهي برنامج سياسي يقدمونه إلى الجماهير الإسرائيلية لتخصهم بأصواتها في الانتخابات . وعندما يقتلون فلسطينيا يقول المجرمون في أنفسهم : بقي على قائمة القتل سبعة ملايين فلسطيني . وعندما تقوم قوات الاحتلال بنسف بيت أسرة فلسطينية يقول المجرمون في أنفسهم : عسى أن يكون هدم بيتهم خطوة على طريق ترحيلهم من البلاد ليسكنوا بلادا غيرها . وعندما يقتلعون أشجار مزارع فلسطيني يقولون في أنفسهم : إنها وسيلة لزعة حياته ووجوده والتصاقه بأرضه . وهم يعتقدون إجمالا

أن الفرصة سنحت دوليا ليمارسوا جرائمهم ويتقدموا خطوة واسعة في مخطط إسرائيل الكبرى في شرق أوسط جديد دون رقيب ولا حسيب .

والمجرمون الكبار من القادة يولكون تنفيذ هذه المخططات إلى صبية مجندين أخضعوهم لتربية منهجية وتوجيه معنوي يصور الفلسطينيين تماسيح وأفاعي وتغالب مأكرة ، بل أسوأ وأرذل وأحقر .

وعلى فظاعة ذلك كله فالأمر لا يتوقف عند هذا الحد ولا يمكن التعاطي معه بمفرده لأن المشكلة هنا باتت فرعا من أصل . والمعركة الأصلية هي معركة الولايات المتحدة ضد المنطقة العربية والإسلامية كلها .. معركة الأمريكيين من أجل إعادة تقسيم الدول والشعوب والأراضي وإعادة رسم خريطة المنطقة .. ومعركتهم من أجل أن تكون لهم اليد العليا المطلقة في حقول النفط كلها في الشمال الإفريقي كما في شبه الجزيرة العربية وفي الجنوب الآسيوي الإسلامي .. ومعركتهم من أجل ضمان بقاء إسرائيل (وتطويرها من قاعدة أمريكية دائمة وكتب حراسة في المنطقة العربية إلى ولاية أمريكية متقدمة وكتب حراسة وتجسس وشتم أثر على بوابة آسيا الغربية ، يؤدي أغراضا واسعة تمتد حتى الصين شرقا) .

الرئيس المتخلف عقليا

لا خلاف على هذا التشخيص الذي تواترت عليه الدلائل وتجلت الوقائع الصريحة . وذلك على الرغم من اللهجة المخففة التي استعارها وزير الخارجية الأمريكي كولن باول مؤخرا ، ليؤدي بواسطتها مهمة وظيفية ، هي الضحك على ذقون أصحاب الذقون وإدامة حالة الاسترخاء والتواكل العربي وتسهيل إنشاء حلف عربي يتعاون مع الولايات المتحدة لضرب العراق . فحشد الجيوش الأمريكية ومناوراتها في الخليج ، وكذا إسهاج التصريحات المتتالية من قبل الرئيس جورج بوش (الذي وصفته الناطقة الرسمية بلسان رئيس الوزراء الكندي السيدة فرانسواز دوكرو !!! بأنه متخلف عقليا - أي معاق - !!!) ، تلك التصريحات تنبئ عن حقيقة مشاعر جورج بوش ومشاريع إدارته بأركانها الصهيونيين الأمريكيين دونالد رامسفيلد وديك تشيني وأمثالهم .

وعلى الرغم من أن الحملة الدبلوماسية الهائلة التي قام بها بوش وأعوانه أدت إلى ذوبان الموقف الاستقلالي الذي احتفظت به أوروبا طويلا حيال الموضوع العراقي ، كما أدت إلى قيام روسيا ببيع موقفها الذي كان سجايا للموقف العراقي (وهكذا أصبحت جميع حكومات العالم تقريبا أشبه بجوقة تردد ما تردده أمريكا) ، على الرغم من ذلك فإن جميع المراقبين في العالم مذهولون من (تفرغ) رئيس أقوى دولة نصبت نفسها قاضيا وشرطيا في العالم لإطلاق التصريحات ضد شخص الرئيس العراقي وضد العراق مهددا متوعدا مستخدما أشد الصيغ إهانة وتحقيرا . إنه شيء يثير الأعصاب ويبعث على الملل . ومن المستبعد أن يكون قد سبق لأي رئيس دولة كبرى التصرف على هذا النحو الغريب دون أي داع مفهوم في التو واللحظة . وظاهر ومفصوح تماما ذلك الافتعال والتكلف في الربط بين العراق من ناحية وبين أحداث سبتمبر والإرهاب من ناحية أخرى . وقد كان مما يستلفت النظر بشدة أن يعمد بوش لتوجيه إحدى تهديداته للعراق في اليوم نفسه الذي تكلم فيه هانز بليكس قانلا بارتياح واضح إن محادثاته مع العراقيين كانت إيجابية ومثمرة . ودأب بوش على اغتنام كل مناسبة يحضرها في الولايات المتحدة لكيال التهديدات للعراق كأنما لا شغل لديه غير هذا الشغل . وما كاد ينصرف في الأيام القليلة الماضية من براغ بعد أن فرض على اجتماع حلف الأطنطي هناك اتخاذ توصية بتهديد العراق بالعواقب الوخيمة إذا لم يتعاون مع المفتشين ، حتى رأيناه يصدر مع الرئيس الروسي بوتين - بضغط من بوش أو في مقابل صفقة معينة - تصريحاً آخر يتهدد العراق ويتوعده !

فلسطنة العالم العربي

هكذا يضع رئيس الولايات المتحدة العالم العربي والإسلامي في الموقف ذاته الذي وضع الاحتلال الإسرائيلي الفلسطينيين فيه : محاولة عزلهم بحيث لا يأملون في نصير للعدل والإنصاف ، وتأليب الآخرين عليهم حتى يفقدوا الثقة بشيء اسمه الرأي العام العالمي وحقوق الإنسان ، وسد جميع الطرق السياسية والدبلوماسية التي تغذي الأمل فلا يبقى أمامهم والحال كذلك إلا العمليات الاستشهادية ضد الولايات المتحدة وجيوشها وأساطيلها .

لقد قامت قيامة الولايات المتحدة ضد المملكة العربية السعودية بعدما اكتشفت حسب قولها أن الغالبية العظمى من الرجال الذين قاموا بعمليات سبتمبر كانوا سعوديين (بالإضافة إلى أن بن لادن نفسه سعودي) . ويشاع أن الدوائر الصهيونية في أمريكا تتحدث عن ضرورة إلغاء مناهج التعليم الديني بالمملكة فورا . وتتحدث عن ضرورة تقسيم المملكة ثلاثة أقسام في المخططات اللاحقة .

وعندما يقوم شرطي بالكويت بإطلاق النار على العسكريين الأمريكيين بعدما قام غيره قبل فترة وجيزة بالفعل نفسه في جزيرة فيلكة ، فإن أقل الناس حظا من الحس بالسياسة يدرك أن المنطقة تغلي غليان المرجل غضبا وحنقا وثورة على السياسة الأمريكية وعهد الرئيس بوش . فكون الفاعلين شبابا كويتيين يعيشون في أفضل مستوى معاشي مرفه في المنطقة ، في ظل حكومة قد تكون أقرب الحكومات العربية إلى الولايات المتحدة وامتنانا لها .. أمور ينبغي أن تدفع الأمريكيين إلى التساؤل : " إذا كان هذا حال هؤلاء فكيف يكون حال الفقراء والمحرومين الذين ليس لديهم ما يخسرونه ؟!"

نحن نضرب المثل بالكويتيين لنلا يقال لنا إذا ذكرنا مصرع الموظف الأمريكي في عمان بالأردن ومصرع الموظفة الأمريكية في صيدا بلبنان : هذان قتلا في بلدين يحويان كثيرا من الفلسطينيين ! ونتجنب أيضا ذكر العمليات التي تقع يوميا في كابول المدينة الوحيدة التي يقيم فيها الأمريكيون بأفغانستان كي لا يقال لنا إن تلك العمليات هي آخر سهم في جعبة بقايا طالبان والقاعدة !

الواقع أن حكام الولايات المتحدة - شأن حكام إسرائيل - يتوهمون أن فرصتهم جاهزة ، ما داموا مالكين التفوق العسكري والمالي ، لكي يستثمروه للحصول على وضعيات ذات امتيازات عالمية جديدة . وذلك باستثمارهم واحتكارهم مصادر ثروات الأمم وترتيب الإجراءات المحكمة الكفيلة بإدامة هذا الاحتكار والاستعمار الإمبريالي . وكلاهما يمكن أن تعميه كراهيته للعرب وللإسلام عن تقدير ردود الأفعال التي يولدها الظلم والاحتقار والإهانة . ولكن كليهما قادر أيضا على التحليل والتنبؤ ونصب الشراك لاستدراج الخصم المنفعل إلى موقف يصبح مقتلا له .

تحكمات وتغلغات

ومنذ أحداث سبتمبر ، راح الأمريكيون يقلبون أنظارهم ذات اليمين وذات الشمال ، بحثا عن الأسباب العميقة التي أدت إلى بروز ظاهرة بن لادن وإخوانه . وعلى كثرة الافتراضات والتعليلات لم يتوقفوا أبدا أمام السبب المباشر القوي ، وهو - ببساطة - انحيازهم الأعمى لإسرائيل التي اغتصبت أرض فلسطين . وبدلا من أن يسعوا لإزالة هذا السبب ، بإبداء شيء من الاستقلالية إزاء اللوبي الصهيوني وتحكماته في السياسة الأمريكية وتغلغلاته في الأجهزة الأمريكية ، إذا بهم يتشبثون بالتعليلات التي يفبركها ذلك اللوبي : ومنها التعليم الديني في السعودية ، ومنها الدين الإسلامي نفسه ، ومنها (الإرهاب) الفلسطيني ، وكل شيء .. كل شيء عدا الانحياز لإسرائيل ، التي تريد من أمريكا أن تستأصل بالنيابة عنها جميع أعداء إسرائيل الفعليين والمحتملين .

ما العمل بعد أن اتضحت الرؤية دوليا وإقليميا على هذا النحو وإلى هذا الحد ؟ وهل هي المرة الأولى التي يجلس الأقوياء ويقسموا بلاد الضعفاء فيما بينهم ؟

ماذا يفعل العرب استراتيجيا وتكتيكيا ؟ وماذا يفعل الفلسطينيون ؟

وهل صحيح أن الولايات المتحدة تقيم حلفا هدفه احتواء الصين هذه المرة وقوامه تركيا وإيران والهند ؟

وهل بقي أمام العرب شيء يفعلونه أم أن الوقت تخطاهم ولم يعودوا إلا ثمارا ساقطة يستطيع الأمريكيون أن يلتقطوها في سلتهم في أي وقت ؟

وهل يستطيع الفلسطينيون أن يستمروا في صمودهم بعدما تركهم إخوتهم في الميدان وحيدين ؟ وماذا يعني بالنسبة للخطط السياسية الفلسطينية المستقبلية فوز عمار متسناح في انتخابات حزب العمل مؤخرا ؟

أسئلة صعبة ، نغامر بالإبحار في محيطها الهائج في الأسبوع القادم إن شاء الله .

